



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 58 (2024), p. 183-202

Omaïma Hassan El-Mahdi

Al-awbi'a bayna al-tafsīrāt al-'ilmiyya wa-l-tafsīrāt al-dīniyya : qirā'a fī al- maṣādir al-mamlūkiyya fī al-qarn al-ḥāmis 'aṣar al-mīlādī

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711714	<i>La pensée et la pratique pharmacologiques d'Avicenne</i>	Sylvie Ayari
9782724711899	<i>BCAI 40</i>	
9782724711288	<i>Karnak-Nord XI</i>	Colin Hope
9782724711622	<i>BIFAO 126</i>	
9782724711059	<i>Les Inscriptions de visiteurs dans les Tombes thébaines</i>	Chloé Ragazzoli
9782724711455	<i>Les émotions dans l'Égypte Ancienne</i>	Rania Y. Merzeban (éd.), Marie-Lys Arnette (éd.), Dimitri Laboury, Cédric Larcher
9782724711639	<i>AnIsl 60</i>	
9782724711448	<i>Athribis XI</i>	Marcus Müller (éd.)

أميمة حسن المهدي*

الأوبئة بين التفسيرات العلمية والتفسيرات الدينية

قراءة في المصادر المملوكية في القرن الخامس عشر الميلادي

* ملخص

شهد العصر المملوكي بشكل متكرر، بدءاً من أربعينيات القرن الرابع عشر وحتى نهاية هذا العصر في ١٥١٧ م، انتشار أوبئة كثيرة أحدثت دماراً ديموغرافياً واجتماعياً واقتصادياً بالغاً. وقد تناول مؤرخو القرن الخامس عشر تفشيها وآثارها المأساوية، كما حاولوا العثور على أسبابها، وقد اختلفت تفسيراتهم لظهورها وانتشارها باختلاف خلفياتهم الثقافية والمعرفية.

يورد هذا البحث أهم هذه التفسيرات التي تراوحت بين التفسيرات الطبية والطبيعية السائدة في عصر هؤلاء المؤرخين وتفسيرات رجال الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء المعتمدة أساساً على الأحاديث والآثار المنقولة عن الرسول وصحابته.

الكلمات المفتاحية: المماليك، الأوبئة، الطاعون، الموت الأسود، نظرية الأخلاط الأربعة، القرن الخامس عشر

* أميمة حسن المهدي، حاصلة على شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية من جامعة الزقازيق بمصر،

omaima071@gmail.com

♦ ABSTRACT

**Epidemics Between Scientific and Religious Interpretations:
Reading in Mamluk Sources in the 15th Century**

The Mamluk era witnessed the spread of epidemics repeatedly from the 1340s until its end in 1517, causing demographic, social and economic devastation. While fifteenth-century historians record their outbreak and their tragic effects, they wondered about their causes. Their answers differed according to their cultural and scientific backgrounds.

This research aims to present the most important interpretations that these historians gave of the occurrence and the spread of epidemics, which varied between medical and natural interpretations prevalent in their era and religious ones based mainly on *hadiths* transmitted from the Prophet and his companions.

Keywords: Mamluks, epidemics, the plague, black death, humorism, 15th century

♦ RÉSUMÉ

**Les épidémies entre interprétations scientifiques et religieuses.
Lecture dans les sources mameloukes au xv^e siècle**

L'époque mamelouke a connu à plusieurs reprises, à partir des années 1340 et jusqu'à sa fin en 1517, la propagation d'épidémies qui ont causé des ravages démographiques, sociaux et économiques. Les historiens du xv^e siècle ont consigné les événements liés à ces épidémies ainsi que leurs effets tragiques. Ils se sont également interrogés sur leurs causes, et leurs réponses ont varié suivant leurs origines culturelles et scientifiques.

Cette recherche vise à présenter les principales interprétations que ces historiens ont données à l'apparition et à la propagation des épidémies et qui ont varié entre les interprétations médicales et naturelles prédominantes à leur époque et celles religieuses, basées principalement sur les *hadiths* et les traditions transmises par le Prophète et ses compagnons.

Mots-clés : Mamelouks, épidémies, peste, peste noire, humorisme, xv^e siècle

* * *

مقدمة

بدأ وباء الطاعون (الموت الأسود) انطلاقاً من سهوب الإيستبس في آسيا الوسطى، وفي ثلاثينيات القرن الرابع عشر تفشى في الصين (١٣٣١ م) ثم الهند، كما انتشر عن طريق القوافل التجارية والسفن والجيوش والبعثات الدبلوماسية في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، فظهر في القسطنطينية عام ١٣٤٧ م، وانتشر في موانئ البحر المتوسط فوصل إلى صقلية ومارسيليا والإسكندرية في نفس السنة، ومن الموانئ إلى المناطق الداخلية من شمال أفريقيا وأوروبا عام ١٣٤٨ م. كذلك، انتشر شمالاً في الأناضول وفي الجنوب الشرقي إلى الموصل وبغداد بحلول عام ١٣٤٩ م، واستمر في الانتشار في أوروبا حتى وصل إلى موسكو عام ١٣٥١ م؛ وعلى مدار القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، دمر الموت الأسود والأوبئة اللاحقة أوروبا والشرق الأوسط ديموجرافياً إذ أسفرت عن ملايين القتلى وخراب اقتصادي واجتماعي كبير.

شهد العصر المملوكي انتشاراً للأوبئة بشكل متكرر بدءاً من أربعينيات القرن الرابع عشر في عام ٧٤٨ هـ/١٣٣٨ م وحتى نهاية هذا العصر في ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م، الأمر الذي أثار انتباه المؤرخين بالطبع، فحاولوا تفسيرها عند الحديث عنها؛ وكما تعددت خلفياتهم الثقافية والعلمية والفكرية، اختلفت رؤاهم لها، فبالرغم من وجود قدر ثابت من التعليم الديني لديهم، يبدأ بحفظ القرآن ودراسة الحديث والفقهاء، كانت مشاربهم الثقافية وخلفياتهم الاجتماعية مختلفة. بعضهم كان مهتماً بالتاريخ في المقام الأول مع الانخراط في أعمال مختلفة في الدولة كالمقرئ^٢ (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م)، الذي تولى حسبة القاهرة قبل أن يتفرغ للكتابة التاريخية، والصيرفي (ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٥ م)، الذي تولى صيرفة السلطان، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م)، الذي كان من الجيل الثاني من المماليك (أبناء الناس). بعضهم الآخر كانوا رجال دين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين كابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) والسيوطي (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م). وقد تنوعت هذه التفسيرات لظهور الأوبئة وتفشيها ما بين الديني المحض أو الأسطوري، والطبي العلمي، وأغلبها كان خليطاً من كل هذا.

١. Dols 1977, p. 35; Ayalon 2015, p. 28.

٢. المقرئ، السلوك، ٢، ٣، ص ٧٧٢-٧٨٠؛ بيرن ٢٠١٤، ص ١٨-٢٠. انظر كذلك:

Dols 1977, p. 35, 38; Ayalon 2015, p. 28-29.

٣. انظر ترجمة المقرئ في الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ٤، ص ٢٤٢-٢٤٤.

يقارن هذا البحث بين تفسيرات المؤلفين، من مؤرخين وفقهاء وغيرهم، لظهور الأوبئة، مبينا أسباب اعتناقهم لرؤية ما، مفترضا تأثيرهم في ذلك بخلفيتهم العلمية أو الفكرية أو الثقافية. ويهتم بالسياقات التي أوردوها في العصر المملوكي لتفسير حدوثها، حيث شغل أذهانهم التساؤل حول سببها وموت الناس والخوف والهلع الذي سيطر على المجتمع، كما شغل أذهان كافة الناس، فذكروا آراءهم الخاصة كما رووا آراء طوائف المجتمع المختلفة في هذا الشأن.

١. التفسيرات الطبيعية للأوبئة

١.١. نظرية الأخلاط أو الأمزجة الأربعة

اتبع المؤرخ تقي الدين المقرئ في تفسيره للأوبئة النظرية السائدة في العصور الوسطى، وهي نظرية الأخلاط أو الأمزجة الأربعة، التي عرفت لدى الأطباء اليونانيين - وخاصة أبقراط وجالينوس - وانتقلت إلى العالم الإسلامي على يد ابن سينا والرازي وغيرهما من الأطباء. وتقوم هذه النظرية على أن كل شيء في العالم يتكون من واحد من العناصر الأربعة هي الهواء والماء والنار والتراب، وتقابلها في الإنسان أخلاط أربعة هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وتنتج عن هذه الأخلاط الأربعة الأمزجة الأربعة، وهي المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي. ويختلف المزاج، وفق هذه النظرية، بحسب الإقليم، كما أن لكل فرد من الناس مزاجا خاصا يتحكم في حالته العضوية والنفسية.

ويرى جالينوس أن المزاج يتأثر بالمناخ حسب الفصول، وأن من يريد البحث في أسباب الأمراض عليه أن ينظر بعين الاعتبار إلى فصول السنة والآثار التي يحدثها كل منها، ثم بعد ذلك إلى الرياح الساخنة والباردة والرطوبة واليابسة، فإذا زاد في الهواء المحيط بالأجساد أي منها، فإنه يكدر ويفسد اعتدال مزاج الأبدان، ومنها الشائعة في كافة الأمصار والبلدان ومنها الخاصة بكل موضع من العالم على حدة، وعلى المرء، حسب قوله، أن يتفكر بمزيد من الانتباه في المياه التي يستخدمها سكان المدينة، وهل هي مياه مستنقعات أم مياه تجري من مواضع مرتفعة وصخرية، وفي الأرض إن كانت جرداء أو مكسوة بالأشجار ومروية جيدا، وهل تقع في موضع منخفض محصور أو في مرتفع بارد، وفي الأسلوب الذي يعيش به السكان، والأنشطة التي يمارسونها، وهل هم مغرمون بالشهوات، وهل يميلون إلى الكسل، أم أنهم مغرمون بالترييض والعمل الشاق.

٤. 87, p. 1977, Dols.

٥. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص ٧٠-٧٦، ٧٩-٨٠؛ ابن سينا، القانون في الطب، ١، ص ١٧-٢١، ٢٨-٣٥، ٢٠٠-٢٠١؛ عطية ١٩٩٩، ص ١٢٦-١٢٧؛ واتس ٢٠١٠، ص ٨٥؛ بيرن ٢٠١٤، ص ٣٠-٣٣، ٣٩٩، ٤٠٢؛ ساراتشي ٢٠١٥، ص ١٥-١٦. انظر كذلك:

Sarton 1943, p. 205-206, Dols 1977, p. 78.

ويطلق المقرزي على الوباء اسم المرض الوافد، ويسميه أيضا الموتان لأنه يكثر معه الموت، ويعرفه بأنه ما يعم خلقا كثيرا في بلد واحد وزمان واحدا، وذلك نقلا عن كل من أبقراط وجالينوس^٦. ويرى، نقلا عن الأطباء، أن السبب في حدوثه سيلان الأخلاط في الربيع وجمودها في فصل الشتاء، ولذلك يحدث دائما في الربيع حسب قوله، وإن كان رصد مجيء الطاعون عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م في الشتاء على خلاف ما قرره الأطباء من حدوث الأمراض في الربيع^٧، وهو ما عده الصيرفي من النواذر لنفس السبب، وأرجع ذلك إلى مشيئة الله تعالى واختياره^٨. ويرى المقرزي أن «للمرض الوافد» أسبابا كثيرة وأن السبب الأول فيها زيادة فيضان النيل زيادة كبيرة عن الحد، واستمرار هذه الزيادة مدة طويلة، لأن الفيضان في مصر يحدث في الصيف، وتغمر المياه الأرض في فصل الخريف، بخلاف الأنهار الأخرى التي تفيض في الشتاء^٩. يقول: «أرض مصر كثيرة الاختلاف، كثيرة الرطوبة الفضلية التي يسرع إليها العفن، والعلة القصبى في جميع ذلك هو أن أخص الأوقات بالجفاف في الأرض كلها تكثرفيه بمصر الرطوبة، لأنها تترطب في الصيف والخريف بمد النيل وفيضه، وهذا بخلاف ما عليه البلدان الأخرى^{١٠}». ويرى المقرزي أنه إذا كان المصريون لا يمرضون دوما، فلتعودهم على حال أرض مصر ولأن أجسادهم تشبه الأرض التي نشأوا فيها^{١١}. ولذلك لا يتعرضون للأوبئة إلا إذا زاد الفيضان عن المعتاد وزادت مدته عن الحد الطبيعي: «وإذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء^{١٢}». لكن لم يربط المقرزي بين زيادة الفيضان (حالات الاستبحار) وحدث الأوبئة في حويلاته إلا في حالة واحدة في عام ٨٢٥ هـ/١٤٢٢ م، عندما ذكر أن فيضان النيل قد بلغ في أقصى حد له في هذا العام عشرين ذراعا ونصف ثم أشار إلى انتشار الأمراض في نفس العام في القاهرة والوجه البحري عند انحطاط ماء النيل في فصل الخريف^{١٣}.

٦. المقرزي، الخطط، ١، ص ١٢٢.

٧. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص ٨٠، ٨٢، ٨٤.

٨. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص ١٨٢؛ المقرزي، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٨٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص ٣٣٧-٣٣٨.

٩. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ١٨٢-١٨٣.

١٠. المقرزي، الخطط، ١، ص ١٢١.

١١. المقرزي، الخطط، ١، ص ١١٥.

١٢. المقرزي، الخطط، ١، ص ١١٥-١١٦، ١٢٢.

١٣. المقرزي، الخطط، ١، ص ١٥٨.

١٤. المقرزي، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٦٢٠، ٦٢٥؛ الجعدي ٢٠٠٢، ص ٤٥، ٤٧.

واتفق معه في الرأي المؤرخ ابن تغري بردي الذي يقول في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: «وإذا زاد [أي النيل] على السبع عشرة وبلغ الثمان عشرة ذراعا وأغلقها استبحر من أرض مصر الربع [٠٠٠] وإذا كانت الزيادة ثمان عشرة ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء في مصر^{١٥}»

٢٠١. تغيير كيفية الهواء والماء والغذاء للحالة النفسية

كما يرى المقرئزي أن الأوبئة لها أسباب كثيرة تجتمع في أربعة أمور أساسية، وهي تغيير كيفية الهواء^{١٦} وتغيير كيفية الماء وتغيير كيفية الأغذية وتغيير الحالة النفسية للناس^{١٧}، فيقول:

[٠٠٠] فالأمراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء، سواء كانت مادة فساده من أرض مصر، أو من البلاد التي تجاورها كالسودان والحجاز والشم وبرقة، أو يعرض للنيل بأن تفرط زيادته فتكثر زيادة الرطوبة والعفن، أو تقل زيادته جدا فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس إلى شرب مياه رديئة، أو يخالطه عفونة تحدث عن حرب تكون في أرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير ويرتفع بخار جيفهم في الهواء فيعفن ويتصل عفنه إليهم، أو يسيل الماء ويحمل معه العفن، أو يغلو السعير، أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش ونحوها مضر، أو يلحق الناس خوف عام أو قنوط، وكل واحد من هذه الأسباب يحدث في أرض مصر مرضا وافدا تكون قوته بمقدار قوة السبب المحدث له، وإن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأسرع في القتل^{١٨}.

والهواء، من وجهة نظر المقرئزي، تتغير كيميته على ضربين: أحدهما تغييره الذي جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضا ولا وباء، والثاني تغييره الخارج عمّا جرت به العادة، ويرى أن هذا هو الذي يسبب حدوث الأوبئة. وخروج تغيير الهواء عن عادته، يكون «إما بأن يسخن أكثر أو يبرد أو يربط أو يجف، أو يخالطه حالة عفنية، والحالة العفنية

١٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١، ص ٥٤.

١٦. كانت النظرية السائدة في تفسير حدوث الوباء في العصور الوسطى تقوم على أن سببه الرئيسي هو فساد الهواء أو الهواء المحلل والمعفن على حد قول ابن سينا.

راجع: جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقرط، ص ٨٠، ٨٢، ٨٤، ١٨٨؛ ابن سينا، القانون في الطب، ١، ص ٢٠١.

١٧. المقرئزي، الخلط، ١، ص ١٢٢.

١٨. المقرئزي، الخلط، ١، ص ١٢٤.

إما أن تكون قريبة أو بعيدة^{١٩}؛ ثم ينقل آراء أطباء اليونان القديمة في أن فساد الهواء من الممكن أن ينتقل من أماكن بعيدة فيقول: «فإن أبقراط وجالينوس يقولان: إنه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض وافد عن عفونة اجتمعت في بلاد الحبشة، وتراقت إلى الجو وانحدرت على اليونانيين فأحدث فيهم المرض الوافد^{٢٠}». ويتحدث المقرئزي عن ارتباط الأوبئة بالماء فيقول:

والماء أيضا قد يحدث المرض الوافد، إما بأن يفرط مقداره في الزيادة أو النقصان، أو يخالطه حال عفنة، ويضطر الناس إلى شربه، ويعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم، وذلك إذا شرب منه مباشرة وهو كذلك، أو مر أثناء جريانه على موضع اجتمع فيه من جيف الموتى شيء كثير، أو بمياه نقاع عفنة فيختلط بها ويحدرها معه^{٢١}[٠٠٠].

كذلك يتحدث المقرئزي عن أن سبب الأوبئة قد يكون الأغذية إذا هزلت الحيوانات وارتفع ثمنها واضطر الناس إلى أكلها، أو بسبب فساد مرعاها أو الماء الذي تشربه^{٢٢}، ثم يذكر أثر العامل النفسي في انتشارها، فيقول:

والأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث في الناس خوف عام من بعض الملوك، فيطول صبرهم وتفكرهم في الخلاص منه وفي وقوع الوباء، فيسوء هضم أجوافهم وتغير حرارتهم الغريزية، وربما اضطروا إلى حركة عنيفة في هذه الحال، أو يتوقعون قحط بعض السنين، فيكثرون الحركة والاجتهاد في ادخار الأشياء، وليشد غمهم بما سيحدث^{٢٣}.

١٩. المقرئزي، الخطط، ١، ص ١٢٢-١٢٣.

٢٠. المقرئزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢١. المقرئزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢٢. المقرئزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢٣. المقرئزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٠٣٠١. العدوى

كذلك، عرف المقرزي العدوى^{٢٤}، فبالرغم من عدم معرفة الأطباء حتى العصر الحديث للبكتيريا والفيروسات المسببة للأمراض ولا لطرق العدوى بها، فقد عرفوا العدوى بالمشاهدة والنظر في أحوال المرضى وأرجعوها إلى مخالطة أخلاط فاسدة للهواء. يقول:

وقد يتغير أيضا مزاج الهواء على العادة، بأن يصل وفد كثير قد أنك أبدانهم طول السفر وساءت أخلاطهم، فيخالط الهواء منها شيء كثير، ويقع الإعداء في الناس، ويظهر المرض الوافد [٠٠٠]؛ وظاهر أنه إذا كثر في وقت واحد المرضى بمدينة واحدة، ارتفع من أبدانهم بخار كثيف فيتغير مزاج الهواء، فإذا صادف بدنا مستعدا أمرضه، وإن كان صاحبه لم يتعرض لما يتعرض إليه الناس^{٢٥}.

٠٤٠١. ارتباط الأوبئة بالمجاعات

والمجاعات غالبا ما ترتبط بظهور وباء الطاعون، ربما نتيجة لانخفاض المناعة والمقاومة البشرية للأمراض، ونقل احتياطات الغذاء مما يجعل الفئران المصابة نتصل بالبشر^{٢٦}. وقد أدرك المؤرخون كالمقرزي وابن تغري بردي هذه الصلة الوثيقة فربطوا بين نقص فيضان النيل وغلاء الأسعار وحدوث المجاعات، من جهة، وحدوث الأوبئة، من جهة أخرى، فيذكر المقرزي أنه حدث في عام ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م نقص في فيضان النيل فغلت الأسعار وانتشرت الأوبئة في مصر^{٢٧}، وكذلك في عام ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م في صعيد مصر^{٢٨}. كذلك، يروي أن السبب في الوباء الذي كان في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي عام ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م، كان نقصان النيل فاشتد الغلاء وعم الخوف والاضطراب وحدثت المجاعة ومن ثم انتشر الوباء في مصر^{٢٩}.

٢٤. تختلف العدوى هنا عن العدوى بمفهومها الحديث بعد اكتشاف الميكروبات، فهي وجهة نظر توفيقية بين الرأي الشائع وقتها لأبقراط وجالينوس من أن السبب في الوباء هو مزاج الهواء المحيط بالناس وبين انتشار الوباء بين المخالطين للمرضى. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص ٨٠، ٨٢، ٨٤، ١٨٨. انظر كذلك:

Dols 1977, p. 92-93.

٢٥. المقرزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢٦. Dols 1977, p. 22.

٢٧. المقرزي، الخطط، ١، ص ١٩٦.

٢٨. المقرزي، الخطط، ١، ص ٥١٦.

٢٩. المقرزي، الخطط، ٢، ص ١٩٠-١٩١.

ويذكر كل من المقرئزي وابن تغري بردي أنه في ٦٩٤ هـ/١٢٩٤ م، في العام الأول من حكم العادل كتبنا المنصوري (٦٩٤-٦٩٦ هـ/١٢٩٤-١٢٩٦ م)، كان الغلاء عظيماً بسائر البلاد، ولا سيما بمصر والشام، وكان بمصر مع الغلاء وباء عظيم وقاسى الناس الشدائد في هذه السنة، واستسقى الناس بمصر من عظم الغلاء والفناء^{٣٠}.

٥.١. ارتباط الأوبئة بالفتن والحروب

كذلك قرن المؤرخون في مصر المملوكية بين حدوث الفتن والحروب وكثرة القتلى، من جهة، والأوبئة، من جهة أخرى، فقد ذكر المقرئزي أن السبب في «الشدّة المستنصرية»، وهي المجاعة التي حدثت في عام ٤٥٧ هـ/١٠٦٥ م واستمرت إلى عام ٤٦٤ هـ/١٠٧١ م، حدوث غلاء شديد أعقبه وباء، وأن السبب في حدوث الغلاء وقوع فتن وحروب بين الأتراك والعبيد السود ومع الخارجين على الدولة، كابن حمدان الذي خرج على الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ/١٠٣٦-١٠٩٤ م) في البحيرة، وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧ هـ/١٠٣١-١٠٧٥ م)، فخاربه المستنصر بالله، فحدث الغلاء في مصر نتيجة لقطع الطرق ونهب الأراضي والمخازن، واستمر الأمر على ذلك سبع سنين؛ وبرغم حدوث الفيضان، لم يتمكن الناس من الزراعة بسبب انعدام الأمن، فعمت المجاعة والوباء أرض مصر فأكل الناس الميتة والكلاب والقطط^{٣١}. كذلك، حدث الوباء في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٥٢٤-٥٤٤ هـ/١١٣٠-١١٤٩ م) في عام ٥٣٦ هـ/١١٤٢ م بسبب غلاء الأسعار الناتج عن انعدام الأمن في البلاد^{٣٢}، وكذلك في عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، حيث حدث وباء عظيم قدر من مات فيه بحوالي مائة ألف^{٣٣}.

٦.١. التفسيرات الفلكية

وإلى جانب الأسباب الطبية الشائعة في ذلك العصر، نقلت لنا أعمال المؤرخين في القرن الخامس عشر المعارف السائدة آنذاك عن أسباب أخرى للأوبئة. وينقل المقرئزي، الذي يميل إلى التفسيرات الطبيعية، عن مؤلف مجهول - رأى مصنفاً له في التنجيم وعليه شرح - أن السبب في حدوث الغلاء والوباء في مصر «عندما حل زحل في برج الجوزاء وكان معه الجوزهر فكانت أشد وأقوى^{٣٤}»؛ وينقل عن شارح الكتاب أن هذا قد وقع فعلاً في

٣٠. المقرئزي، الخطط، ٢، ص ١٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨، ص ٧١.

٣١. المقرئزي، الخطط، ٣، ص ١٣٦-١٤٣.

٣٢. المقرئزي، الخطط، ٢، ص ٢٠١.

٣٣. المقرئزي، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٨٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص ٣٤٧.

٣٤. المقرئزي، الخطط، ٢، ص ٢٤١.

عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفي آخر عام ٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م وأول سنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م في عهد العادل كتبغا^{٣٥}.

ويرى المقرئ صحة هذا الأمر فيقول إن هذا القرآن يحدث كل ثلاثين عاما ويستمر لمدة ثلاثين شهرا، وأنه اختبر ذلك بنفسه وراجعه، فرأى أنه كلما حدث ذلك حدث فعلا الغلاء والوباء في مصر؛ كذلك، يؤكد على موافقته رأي صاحب هذا الكتاب بأن القرآن العاشر كانت بدايته سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٤ م ونهايته سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٤ م، أي أنه استمر لمدة عشرين عاما تدهور فيها حال القاهرة تدهورا شديدا كما توقع المنجم؛ كما يوافق في توقعه خراب القاهرة ونهايتها في عام ٨١٨ هـ/١٤١٥ م عندما يقترب زحل والمريخ في برج السرطان، ويستدل على ذلك بسوء حال القاهرة العمرانية والاقتصادية^{٣٦}.

ويذكر كل من المقرئ وابن تغري بردي أن الوباء في يوم منتصف جمادى الآخرة من عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م أخذ يتناقص استجابة من الله لدعاء الصالحين، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى في رجب لسبب فلكي وهو دخول الشمس في برج الحمل^{٣٧}.

ويتفق ابن تغري بردي مع المقرئ في الاعتقاد بصحة التنجيم ووقوع الوباء بسبب حركة النجوم في أبراج السماء فيقول إنه في عام ٨٥٦ هـ/١٤٥٢ م، فشا الموت في القاهرة بسبب حدوث وباء لم يذكر ما هو، ولكنه يقول إنه لم يكن الطاعون، واشتد بسبب انتقال الشمس إلى برج الحوت، بالرغم من رخص الأسعار والرخاء في هذا العام^{٣٨}. كذلك اعتقد ابن تغري بردي أن الطاعون الذي حدث بواسطة وانتشر منها إلى سائر العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥ هـ/٧١٣ م) قد حدث بسبب شؤم هذا الأخير^{٣٩}.

٢. الأوبئة كعقاب إلهي

وبالرغم من أن المؤرخين في ذلك العصر كانوا يميلون إلى تفسير الأوبئة بالأسباب الطبيعية، كانوا ينقلون في مؤلفاتهم التفسيرات الدينية التي كان يميل إليها مجتمع العصر المملوكي. ويروي كل من المقرئ وابن تغري بردي والصيرفي الاعتقاد بأن الطاعون قد يصيب البعض بسبب الدعاء عليهم به، فيقولون إن السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١ هـ/١٤٢٢-١٤٣٨ م) كان يؤمن بأن دعاءه على المماليك السلطانية بسبب فسادهم وتصرفاتهم المسيئة إليه

٣٥. المقرئ، الخطط، ٢، ص ٢٤٢.

٣٦. المقرئ، الخطط، ٢، ص ٢٤٣.

٣٧. المقرئ، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٨٢٨-٨٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص ٣٤٣.

٣٨. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ٢، ص ٥٥٧.

٣٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١، ص ٢٣٠.

وإلى الناس تسببت في موتهم بالطاعون عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، وأنه اشترى بعد ذلك المماليك، فأفسدوا مثلها فعل من كان قبلهم فدعا عليهم فأصابهم الطاعون أيضا عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م، ثم يقول إنه قد عفا عنهم حتى لا يصيب الوباء البقية»^{٤٠}

وقد ظلت وجهة النظر الغالبة لدى العلماء والفقهاء وعامة الشعب وخاصتهم أن وقوع الوباء بسبب إرادة الله وكانت التفسيرات المختلفة تبحث في كيفية إنفاذه لإرادته^{٤١}. وبسبب انتشار الخوف وعدم الأمان وبسبب عدم جدوى اللجوء إلى الأطباء، تتصاعد الرغبة في الاحتماء بالدين، ويزيد التردد على دور العبادة وممارسة الشعائر الدينية. وللحاجة إلى لوم المتسبب في وقوع الوباء، ظهرت تفسيرات غيبية كان أهمها أن الأوبئة عقاب من الله بسبب فساد العباد وظلم الحكام وغضب من الله تعالى بسبب انتشار الفواحش وشرب الخمر وأكل الربا وخروج النساء متزينات ومتبرجات من بيوتهن. وفي الواقع لم يكن التفسير الديني للأوبئة قاصرا على العالم الإسلامي بل كان ظاهرة عامة في العصور الوسطى في كل العالم المعروف آنذاك^{٤٢}، لجميع مؤرخي الموت الأسود وأوبئة الطاعون اللاحقة يفسرون هذه الكوارث على أنها عقوبات إلهية للإنسان على خطاياها. ولم تكن فكرة الغضب الإلهي بأي حال من الأحوال اختراعا من اختراعات العصور الوسطى إذ تعود إلى أقدم العصور التي عرفتها البشرية^{٤٣}.

وقد قال ابن إياس إن «الطاعون كان في مدة انقطاعه عن مصر كثير بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وظلم المماليك في حق الناس»^{٤٤}. وفي ٢٣ من رمضان عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م، اجتمع قضاة المذاهب الأربعة والعلماء وطلاب العلم لقراءة صحيح البخاري في القلعة بين يدي السلطان الأشرف برسباني، كما هي العادة في ذلك العصر، وكان السلطان قلقا من أمر انتشار الوباء في البلاد، فسأل القضاة والفقهاء عن الذنوب التي إذا ارتكبتها الناس عاقبهم الله بالطاعون، فقال له بعضهم: إن الزنا إذا فشا في الناس ظهر فيهم الطاعون، وأن النساء يتزينن ويمشين في الطرقات ليلا ونهارا؛ وأشار آخر إلى أن المصلحة تقضي بمنع النساء من المشي في الأسواق، فنازعه آخر فقال: لا يمنع من ذلك إلا المتبرجات، وأما العجائز ومن ليس لها من يقوم بأمرها، فلا تمنع من تعاطي حاجاتها؛ وعارض بعضهم البعض؛ فقال السلطان إلى منعهن من الخروج مطلقا، واتفق معه العلماء على ذلك، وتوعد من خرج منهن بالقتل، ظنا منه أنه بمنعهن يرتفع الوباء، وأصدر أمرا بذلك وتولى تنفيذه والي القاهرة والمحاسب ورجاله، وأقال السلطان المحتسب القاضي صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله وولى دولات نجا الذي وصفه

٤٠. المقرئ، السلوك، ٤، ق ٢، ص ١٠٤٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص ٣٥٦؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤١٦.

٤١. Dols 1977, p. 84.

٤٢. عنان ١٩٦٩، ص ١٥٣؛ الجعيد ٢٠٠٢، ص ٣١٨-٣٢٠؛ مصطفى عبد العظيم ٢٠٢٠، ص ١٧-٢٠؛ حمودة ١٩٨٩، ص ٤٨.

٤٣. Hanska 2002, p. 116.

٤٤. ابن إياس، بدائع الزهور، ٢، ص ٢٧٣.

بأنه «ليس بمسلم ولا يخاف الله»^{٤٥}، وذلك حتى يمنع النساء من الخروج بقسوة وبعقوبات شديدة، ظاناً أن منعهن سيؤدي إلى زوال وباء الطاعون، ثم خفف السلطان هذا المنع لما لحق بالناس من مشقة، فسمح للجواري بالخروج بشرط ألا يتنقبن، وأن تخرج العجائز لقتضاء أشغالهن، كما سمح للنساء بالخروج إلى الحمام بشرط ألا يبتن فيه^{٤٦}. ويتضح من تعليقات المقرئ والصيرفي عدم رضاها عن هذا القرار فيقول المقرئ: «[٠٠٠] فازداد الناس وقوف حال، وكساد معاش، وتعطل الأسواق، وقلة مكاسب»^{٤٧}؛ واتفق معه الصيرفي في ذلك بالإضافة إلى أنه عدد بعض الحوادث المفجعة التي حدثت للنساء نتيجة منعهن من الخروج والعقوبات الشديدة التي وقعت عليهن، ومنها أن امرأة منعوها من اتباع جنازة ابنها الوحيد الذي مات بالطاعون فألقت بنفسها من سطح بيتها فانت، وامرأة خرجت لضرورة فوجدت المحتسب دولت نجا فأمر بحملها إلى داره لعقابها فذهب عقلها من الخوف ومرضت أياما وماتت^{٤٨}.

وقد انتقد ابن تغري بردي هو الآخر هذه القرارات وما ترتب عليها من الأضرار التي لحقت بالناس، فقال:

كل ذلك لعدم أهلية الحكام واستحسان الولاة على الخواطي، وإلا فالخرة معروفة ولو كانت في الخمارة، والفاجرة معروفة ولو كانت في البيت الحرام، ولا يخفى ذلك على الذوق السليم، غير أن هذا كله وأمثاله لولاية المناصب غير أهلها، وأما الحاكم النحرير الحاذق الفطن إذا قام بأمر نهض به وتبع الماء من مجاريه، وأخذ ما هو بصده حتى أزاله في أسرع وقت وأهون حال، ولا يحتاج ذلك إلى بعض ما الناس فيه، وهو ذهاب الصالح بالطالح والبريء مع المجرم، وتحكم مثل هذا الجاهل بالمسلمين^{٤٩}.

وقد رصد المؤرخون الطرق التي حاول بها الناس إطفاء غضب الله واسترضاءه، فيقول المقرئ إنه عندما اشتد الوباء في عام ٧٤٨ هـ/١٣٣٨ م في دمشق، جاء رجل من بلاد الروم إلى قاضي دمشق، الشيخ تقي الدين السبكي، فزعم أنه رأى النبي محمد ﷺ في رؤيا فشكا إليه الوباء وموت الناس فأمره بأن يقول للناس أن يقرأوا سورة نوح ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستين مرة وأن يدعوا الله ليذهب الوباء، فأخبر الناس بذلك فاجتمعوا في المساجد وفعّلوا مثلها قال وتضرعوا إلى الله وتابوا من ذنوبهم وذبجوا وأطعموا الفقراء لمدة سبعة أيام، ثم يروي أنه نتيجة لذلك، كان الوباء يتناقص كل يوم من الأيام السبعة حتى زال، فنودي في الناس ليجتمعوا في الجامع الأموي فاجتمعوا

٤٥. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٠٥.

٤٦. المقرئ، السلوك، ٤، ق ٢، ص ١٠٣١-١٠٣٣، الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٠٤-٤٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥، ص ٩٣.

٤٧. المقرئ، السلوك، ٤، ق ٢، ص ١٠٣٣.

٤٨. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٠٩.

٤٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥، ص ٩٥.

فيه وأخذوا يقرأون صحيح البخاري ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ثم ذهبوا ومعهم أطفالهم إلى المصلّى وأخذوا يصلون ويدعون الله لمدة ثلاثة أيام، فترجع الوباء حتى انتهى؛ وروى كذلك أن نائب حلب أرسل إلى السلطان أن بعض الصالحين في مدينته رأى النبي وأنه أمره بالتوبة والدعاء بدعاء معين وأنه كتب هذا الدعاء وأرسله إلى حماة وطرابلس ودمشق^{٥٠} ثم يعود المقرئ ويؤكد على أن ذنوب الناس هي السبب في حدوث الطاعون وأن التوبة والصلاة والتضرع إلى الله تذهب فيقول:

وفي هذا الشهر، أي رجب من عام ٨٤١ هـ، وقع الوباء في بلاد الصعيد، وكثر بدمشق، وشنع بحلب وأعمالها، فأظهر أهلها التوبة، وأغلقوا حانات الخمارين، ومنعوا البغايا الواقفات للبعاء، والشباب المرصدين لعمل الفاحشة، بضرائب تحمل لنائب حلب وغيره من أرباب الدولة، فتناقص الموت وخف الوباء، حتى كاد يرتفع، ففرح أهل حلب بذلك، وجعلوا شكر هذه النعمة أن فتحوا الخمارات وأوقفوا البغايا والأحداث للفساد بالضرائب المقررة عليهم، فأصبحوا وقد مات من الناس ثمانمائة إنسان. واستمر الوباء الشنيع والموت الذريع فيهم، في رجب وشعبان وما بعده^{٥١}.

لكن عندما يروي أحداث الوباء في مصر، يختلف تعليق المقرئ على اجتماع الناس للصلاة عما سمعه من أحداث الشام واختفاء الوباء بها بعد اللجوء إلى الله، فيقول إنه في نفس العام، فعل المصريون ما فعله أهل الشام، فقد نودي في الناس فاجتمعوا في المساجد في يوم الجمعة السادس من رمضان فدعوا الله وصلوا وقرأوا صحيح البخاري لعدة أيام، ولكن عدد الأموات، مع ذلك، زاد حتى عجز الناس عن حصر أعدادهم^{٥٢}.

كذلك، يروي المقرئ أنه في عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، ومع اشتداد وباء الطاعون في مصر، نودي في جمادى الأولى في الناس بصيام ثلاثة أيام، وأن يتوبوا إلى الله تعالى من معاصيهم، ويردوا المظالم إلى أصحابها، ويعلق على ذلك بأن الحكام أمروا الناس بذلك واستمروا هم في ظلم الناس وأمرؤهم بأن يخرجوا إلى الصحراء في اليوم الرابع، نخرجوا في جمع غفير خارج باب النصر، وعلى رأسهم قاضي القضاة، علم الدين صالح البلقيني، وجلس بجانب تربة الظاهر برقوق (٧٨٤-٧٩١ هـ/١٣٨٢-١٣٩١ م و٧٩٢-٨٠١ هـ/١٣٩٢-١٣٩٩ م) وتضرع إلى الله ودعا ووعظ الناس فبكوا وضجوا ضجيجا شديدا، وانصرفوا قبل الظهر. يذكر المقرئ أن «الموت كثر في الناس بعد هذا اليوم^{٥٣}». ويرجع

٥٠. المقرئ، السلوك، ٢، ق ٣، ص ٧٧٩-٧٨٠.

٥١. المقرئ، السلوك، ٤، ق ٢، ص ١٠٢٧-١٠٢٨.

٥٢. المقرئ، السلوك، ٢، ق ٣، ص ٧٨٠-٧٨١.

٥٣. المقرئ، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٨٢٢-٨٢٣.

المقريزي والصيرفي ذلك إلى ظلم الحكام والولاة، فقد «أمروا الناس برد المظالم وهم على ما هم عليه من الظلم»^{٥٤}. أما الصيرفي فأرجع انتشار الوباء إلى وجود علم الدين صالح البلقيني في منصب قاضي قضاة الشافعية، وأنه حصل على هذا المنصب بدفع الرشوة وهو غير مستحق له؛ ويبدو أن هذا الرأي كان منتشرًا بين الناس بدليل أن السلطان الأشرف برسبائي عزله سنة ٨٤١ هـ/١٤٣٨ م وولى الحافظ ابن حجر مكانه «لخوفه من الطاعون، وأقسم ألا يولي أحدا من القضاة بالرشوة بعد ذلك وأشهد على نفسه»^{٥٥}.

وحسب ما أورده المقريزي وابن تغري بردي، في يوم الجمعة الخامس عشر من جمادى الآخر من عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، جمع الشريف شهاب الدين أحمد كاتب السر بالديار المصرية، بأمر السلطان الأشرف برسبائي أربعين شريفًا اسم كل منهم محمد، وفرق فيهم من ماله خمسة آلاف درهم، وأجلسهم بالجامع الأزهر فقرأوا ما تيسر من القرآن الكريم بعد صلاة الجمعة، ثم قاموا هم والناس فوقفوا ودعوا الله تعالى حتى دخل وقت صلاة العصر، فصعد الأربعون شريفًا إلى سطح الجامع وأذنوا جميعًا، ثم نزلوا وصلوا مع الناس صلاة العصر وانصرفوا وانصرف الناس، وكان ذلك بمشورة بعض القادمين من المشرق الإسلامي، وأنهم عملوا ذلك في بلادهم فارتفع الوباء عقب ذلك، ويذكر كل من المقريزي وابن تغري بردي أن الوباء أخذ يتناقص في الأيام التالية لهذا الأمر، لكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى في رجب - وإن كانا أرجعا ذلك إلى سبب فلكي وهو دخول الشمس في برج الحمل - كما سبق القول^{٥٦}، بينما أرجع الصيرفي زواله إلى ما يعتقد من بركة النبي محمد ﷺ وبركة آل البيت^{٥٧}.

ويذكر المقريزي والصيرفي أنه في عام ٨٤١ هـ/١٤٣٨ م، أراد السلطان الأشرف برسبائي أن يتقرب إلى الله فأخرج جميع السجناء من المجرمين ومن عليه دين وأغلق السجون كلها، ولكن كان عاقبة ذلك أن انتشر المجرمون وزادت الجرائم وامتنع بعض الناس عن سداد ديونهم وضاعت حقوق الناس^{٥٨}.

وقد دفعت محاولات التقرب إلى الله لرفع الوباء أحيانًا إلى اضطهاد المسيحيين ظنا أن ذلك يرضي الله، ففي عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م، حين اشتد الوباء، هوجمت بيوت بعض المسيحيين وأريققت دنان الخمر التي كانت بها، كما هدم دير المغطس، بالقرب من بحيرة البرلس عند الملاحات، وكان يزوره المسيحيون المصريون في عيد الظهور

٥٤. المقريزي، السلوك، ٤، ٢، ٨٢٢؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ١٨٤.

٥٥. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٠٨.

٥٦. المقريزي، السلوك، ٤، ٢، ص ٨٢٨-٨٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص ٣٤٣.

٥٧. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ١٩٠-١٩١.

٥٨. المقريزي، السلوك، ٤، ٢، ص ١٠٣٣؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٠٥.

ويقدسونه^{٥٩}. ويذكر المقرئزي أنه «قد نزلت أنواع المكاره بأهل الذمة من اليهود والمسيحيين في هذا العام^{٦٠}»، بينما يقول الصيرفي إن «الظلم زاد في هذا العام على أهل الذمة ونزلت بهم المكاره^{٦١}». كذلك، احتفظت لنا المصادر التاريخية ببعض التفسيرات الغيبية الأخرى كزعم الناس أن مقتل شخص لادعائه أنه يعرف صناعة الكيمياء وتضييعه أموال السلطان على تحويل المعادن إلى معادن نفيسة بلا جدوى، قد أدى إلى وقوع الوباء والغلاء والجفاف^{٦٢}.

٣. علماء الدين والأوبئة

١.٣. التفسيرات الدينية لانتشار الأوبئة

أما الفقهاء والمحدثون، فإلى جانب التفسير الطبي لحدوث الوباء والقائم على نظرية الأخلاط الأربعة وفساد وتعفن الهواء والمياه والأغذية، تبنت تفسيرات دينية مأخوذة في الأساس من كتب الأثر والحديث. ولعل أبرز مثال على ذلك ما كتبه ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) في بذل الماعون في فضل الطاعون، وقد لخصه السيوطي (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م) في ما رواه الواعون في الطعن والطاعون. وهما يتفقان في أن الطاعون رجز وعذاب عُذبت به الأمم السابقة على المسلمين، وقيل هم بنو إسرائيل^{٦٣} ويستدل على ذلك، في نظرهما، بأن عبد الرحمن بن عوف أخبر أصحابه وهو في طريق الشام، لما بلغه أن بها الطاعون، عن النبي ﷺ، فقال: «إن هذا الوجع - أو السقم - عذاب عذب به من كان قبلكم»، وفي بعض طرقيه: «عذاب عذب به بعض بني إسرائيل^{٦٤}»، ولكن هذا العذاب صار رحمة وشهادة للمؤمنين، فيذكر حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنه «كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله رحمة للمؤمنين^{٦٥}»، أي أن من يصاب بالطاعون يعد شهيدا فيدخل الجنة بلا سؤال أو حساب.

٥٩. المقرئزي، السلوك، ٤، ق ٢، ص ١٠٣٤؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٠٧-٤٠٨.

٦٠. المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ١٠٣٥.

٦١. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٠٧-٤٠٩.

٦٢. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ص ٤٠-٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ٢، ص ٢٧١.

٦٣. ومن ذلك أن الله ضرب بني إسرائيل بالطاعون عقابا على ما فعله داوود من إحصاء الشعب. سفر صموئيل الثاني، إصحاح ٢٤، سفر الأيام الأول، إصحاح ٢١. يروي ابن حجر هذه الواقعة فيجعل العقاب بسبب ظلم وطغيان بني إسرائيل. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٨٢. ويرى السيوطي كذلك أنه كان عقابا أرسله الله تعالى على بني إسرائيل بسبب الزنا (السيوطي، ما رواه الواعون، ص ١٣٩).

٦٤. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٧٣-٧٧، السيوطي، ما رواه الواعون، ص ١٣٧-١٣٨.

٦٥. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٧٨-٨٠.

ويعتقد ابن حجر العسقلاني والسيوطي أن السبب في حدوث الطاعون ونز أو طعن من الجن^{٦٦}، كما أخبر النبي ﷺ بذلك حسب قولهما، ثم يناقشان كون هذا الجن كافراً أم مسلماً، فيذكر أن هناك أقوالاً في ذلك، الأول أنهم كفار والثاني أنهم مسلمون يفعلون ذلك بأمر الله تعالى للعقاب أو الابتلاء والقول الثالث أنهم من المسلمين والكفار على السواء، وأن الوباء رحمة للمسلمين لأنهم يحصلون على الشهادة وبالتالي يدخلون الجنة بدون حساب أو عقاب، ولذلك، على حد قولهما، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون وفاة أمته بالطعن أي القتل والطاعون، فيصير الطاعون عقاباً لمن يستحق العقوبة ورحمة للمؤمنين^{٦٧}.

٢٠٣. رجال الدين بين العلم والطب في تفسير حدوث الأوبئة

يروي ابن حجر في كتابه كلام ابن النفيس الطبيب في الموجز في الطب من أن الوباء ينشأ عن فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سمانية ككثرة الشهب والرجوم في آخر الصيف، أو كثرة الجنوب والصبأ في الكانونين (ديسمبر ويناير)، أو كثرة علامات المطر في الشتاء دون أن تمطر، وأسباب أرضية كالماء الآسن والجيف الكثيرة، وأنه يقع كذلك في مواضع المعركة إذا لم يدفن القتلى، وبسبب التربة كثيرة التعفن، وكثرة الحشرات والضفادع^{٦٨}. ويعترض السيوطي على ذلك وعلى فكرة تغير الأخلاط قائلاً إن «كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء من الأدوية الطبيعية، وهذا الطاعون قد أعيا الأطباء دواؤه حتى سلم حذاقهم أنه لا دواء له، ولا دافع إلا الذي خلقه وقدره^{٦٩}».

ويحاول ابن حجر التوفيق بين رأي الأطباء، من جهة، وما ورد من الأحاديث ورأي رجال الدين من الفقهاء والمفسرين والمحدثين، من جهة أخرى، فيقول إن كون الطاعون «من طعن الجن لا يخالف قول الأطباء من كونه ينشأ عن مادة سمية أو هيجان الدم أو انصبابه إلى عضو أو غير ذلك، لأنه لا مانع من أن ذلك يحدث عن الطعنة فيحدث منها المادة السمية أو يهيج بسببها الدم أو ينصب^{٧٠}». كذلك، يضيف، قد تكون بعض الأوجاع في الطاعون من غلبة الطبائع، ولا ينافي ذلك كونه من طعن الجن، لاحتمال أن يحصل ذلك التغير عند وجود الطعنة، فينزج بدن المطعون، فيفور به الدم، وتحصل له الكيفية الرديئة التي شخصها الأطباء، بحسب ما اقتضته

٦٦. فكرة نز أو طعن الناس بالطاعون معروفة في العهد القديم، فقد ورد في سفر الأيام رؤيا داوود ملك بيده سيف عندما نظر إلى السماء أثناء وباء الطاعون. سفر الأيام الأول، إصحاح ٢١.

٦٧. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٩-١٥٦، ٢٦٢؛ السيوطي، ما رواه الواعون، ص ١٤٢-١٤٦، ١٥٠-١٥١.

٦٨. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٠-١٠١.

٦٩. السيوطي، ما رواه الواعون، ص ١٤٧.

٧٠. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٤-١٠٥.

قواعدهم، ولا ينافي ذلك أصل سببه الأول^{٧١}. ثم يقول إن «الأطباء معذورون لأن طعنة الجن أمر لا يدرك بالعقل ولا بالتجربة وإنما يدرك بتلقيه من الشارع^{٧٢}».

ويرد ابن حجر على قول الأطباء إن السبب في حدوث الطاعون هو فساد الهواء بأنه لو كان بسبب ذلك لدام وجوده أو انتظم، ولعم جميع الناس والحيوانات، ولكنه يصيب البعض فقط، وبأن فساد الهواء يقتضي تغير الأخلاط وكثرة الأمراض، أما الطاعون فيقتل بلا مرض أو بمرض يسير، وبأنه لا دواء له بينما كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء، ويستدل على ذلك بحديث الرسول ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله». ويحاول ابن حجر مرة أخرى التوفيق بين كلام الأطباء والأحاديث فيذهب إلى أنه ربما كان الوباء على ضربين: ضرب منه يحدث بسبب غلبة بعض الأمشاج كالدم أو الصفراء إذا احترقت أو غير ذلك، بدون تدخل من الجن. والضرب الآخر بسبب ونز الجن^{٧٣} لكنه يرى أن السبب الرئيسي للطاعون هو ونز الجن، سواء كان الونز من جن مؤمن أو جن كافر، ويذكر أن الجن الكافر يطعن المسلمين والجن المؤمن يطعن الكفار. وقد يطعن الجن الكافر المسلمين انتقاماً من الجن المسلم^{٧٤}، ثم يذكر الخلاف عن كون هذا الونز رحمة أو عقوبة على المعاصي، فيذكر أن ونز الجن الذي يتسبب في الطاعون يكون بتسليط من الله تعالى عقوبة لمن يستحق العقوبة وشهادة ورحمة لمن هو أهل لها^{٧٥}.

ويرى ابن حجر أن السبب الحقيقي لحدوث الأوبئة هو انتشار الزنا، وأن الله يسلط الجن لإقامة حد الزنا على المصاب بهذا الطعن (أو الونز)، فيموت الزاني المحصن ويتعذب غير المحصن، أو يحارب الجن الإنس لإظهارهم الفاحشة أو ترك إنكارها فيموتون ويبعث كل فرد على نيته^{٧٦}. ولذلك، ينكر ابن حجر حدوث العدوى لحديث «لا عدوى ولا طيرة»، فيرى أن الأمراض لا تعدي بنفسها ولكن الله تعالى جعل مخالطة المريض بها للصحيح سبباً لإعدائه مرضه، وقد لا تحدث العدوى، ويكون ذلك بمشيئة الله تعالى^{٧٧}.

٧١. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٨.

٧٢. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٨.

٧٣. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٥-١٠٧.

٧٤. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٤٠-١٤٤، ٢١٥.

٧٥. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٥٣.

٧٦. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٢١٥-٢١٧.

٧٧. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٢٩٢.

خاتمة

ومما سبق نرى أن تفسيرات المؤرخين في القرن الخامس عشر لحدوث الأوبئة اختلفت باختلاف خلفياتهم وانقسمت إلى قسمين رئيسيين: قسم تبناه المؤرخون الذين تلقوا - إلى جانب التعليم الديني الأولي - علوما وثقافات متنوعة، كالمقريزي وابن تغري بردي والصيرفي، إذ مالوا إلى التفسيرات الطبية والطبيعية السائدة في عصرهم، كنظرية الأخلاط الأربعة وتغير الأمزجة التي انتقلت من الطب اليوناني القديم إلى الأطباء المسلمين، وسادت في العصور الوسطى. وبالرغم من ميلهم إلى تفسير الأوبئة بالأسباب الطبية رويوا تفسيرات أخرى هي التفسيرات الدينية والغيبية التي انتشرت في عصرهم، وعلى رأسها العقاب الإلهي؛ مما جعل مؤلفاتهم التاريخية تحتفظ لنا بالأفكار السائدة في العصر المملوكي والتي تأثروا هم أنفسهم ببعضها، وخاصة ما كان يستند منها إلى العلوم الزائفة كالتنجيم، بالإضافة إلى إبداء وجهة نظرهم فيها - ما بين مؤيد ورافض وناقد لها ولنتائجها السلبية على المجتمع -، وذلك كمثلين للطبقة المثقفة في هذا العصر.

أما القسم الثاني من تفسيرات حدوث الأوبئة فتلك التي احتفظت بها مؤلفات رجال الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء، كالسيوطي وابن حجر العسقلاني، والمعتمدة أساساً على الأحاديث والآثار المنقولة عن الرسول ﷺ وعن صحابته، والتي تعتمد اعتماداً تاماً على الأفكار الغيبية كالجن والعقاب الإلهي على انتشار الزنا، وهي تفسيرات لم يتفرد بها رجال الدين الإسلامي بل تأثروا فيها بالكاتب المقدس (التوراة)؛ وقد رفض أصحابها الأفكار العلمية السائدة في العصور الوسطى أو حاولوا التوفيق بينها وبين الآثار الدينية مع الإصرار على صحة ما ورد فيها بشكل حرفي. ويبدو واضحاً من دراسة كل هذه المؤلفات التاريخية ومؤلفات رجال الدين أن التفسيرات الدينية لظهور الأوبئة، وخاصة فكرة العقاب الإلهي، كانت هي السائدة في المجتمع، وخاصة بين العامة ورجال الدين، مقارنة بغيرها من التفسيرات.

البibliوغرافيا

١. المصادر

- ابن إياس، بدائع الزهور
ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٧٢.
ابن تغري بردي، حوادث الدهور
ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق م. ك. عز الدين، القاهرة، ١٩٩٠.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٦٣.

- جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط
جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط المسمى
إفيديميا: من المقالة ١ إلى ٣ (بترجمة حنين بن إسحق)،
حققه وترجمه إلى الإنجليزية أ. فاجلبول، برلين، ٢٠١٤.
- ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون
ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون في فضل الطاعون،
تحقيق أ.ع.ع. الكاتب، الرياض، د. ت.
- ابن سينا، القانون في الطب
ابن سينا، القانون في الطب، تحقيق م. أ. الضناوي،
بيروت، ١٩٩٩.
- السيوطي، ما رواه الواعون
السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق
م. ع. الباز، دمشق، د. ت.
- الصيرفي ١٩٧٣-١٩٧١
الصيرفي، زهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان،
ج ١-٣ تحقيق ح. حبشي، القاهرة، ١٩٧٣-١٩٧١.
- الصيرفي، زهة النفوس والأبدان
الصيرفي، زهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان،
ج ٤، تحقيق ح. حبشي، القاهرة، ٢٠١٠.
- المقرئزي، السلوك
المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق
م. م. زيادة، القاهرة، ١٩٥٨-١٩٧٣.
- المقرئزي، انلخطط
المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر انلخطط والآثار
(انلخطط المقرئزية)، ٦ أجزاء، تحقيق أ. ف. سيد،
لندن، ١٩٩٥.

٢. الدراسات

■ باللغة العربية

- عطية ١٩٩٩
أ. ع. عطية، جالينوس في الفكر القديم والمعاصر،
القاهرة، ١٩٩٩.
- مصطفى عبد العظيم ٢٠٢٠
إ. مصطفى عبد العظيم، «غياب دور رجال الحكم
والرعية في مواجهة أزمات وباء الطاعون في مصر
زمن سلاطين المماليك: ٦٤٨-٩٣٢ هـ/١٢٥٠-١٥١٧ م.
دراسة تحليلية»، مجلة البحث العلمي في الآداب،
عين شمس (القاهرة)، العدد ٢١، ج ٨، ٢٠٢٠.
- بيرن ٢٠١٤
ج. بيرن، الحياة اليومية في زمن الموت الأسود، ترجمة
ع. س. الأيوبي، أبو ظبي، ٢٠١٤.
- ساراتثي ٢٠١٥
ر. ساراتثي، علم الأوبئة، ترجمة أ. ف. حسن، القاهرة،
٢٠١٥.
- الجعدي ٢٠٠٢
ش. إ. الجعدي، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر
في عصر المماليك الجراكسة، الاسكندرية، ٢٠٠٢.
- واتس ٢٠١٠
ش. واتس، الأوبئة والتاريخ، ترجمة أ. م. عبد الجواد،
القاهرة، ٢٠١٠.
- حمودة ١٩٨٩
ط. س. حمودة، جلال الدين السيوطي عصره وحياته
وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي، بيروت، ١٩٨٩.
- عنان ١٩٦٩
م. ع. عنان، مصر الإسلامية وتاريخ انلخطط المصرية،
القاهرة، ط ٢، ١٩٦٩.

■ باللغة الإنجليزية

AYALON 2015

Y. Ayalon, *Natural Disasters in the Ottoman Empire*, Cambridge, 2015.

DOLS 1977

W.M. Dols, *The Black Death in the Middle East*, Princeton, 1977.

HANSKA 2002

J. Hanska, *Strategies of Sanity and Survival: Religious Responses to Natural Disasters in the Middle Ages*, Helsinki, 2002.

SARTON 1943

G. Sarton, «Remarks on the Theory of Temperaments», *Isis* 34, 3, 1943, p. 205-208.